فأجسامهم في ديارهم تسكن بغيبه • وأرواحهم في الحجب فوق العلى تسير
عباد عليهم رحمة الله أينما كانوا • فصلوا عكوفا في الخضوع وفي الفقر
يراعون نجم الليل لا يرقدونه • فلا نام تنتبه النجم مع الفجر
فهذا نعيم القوم إن كنت تبتغي • وتغفل عن مولاك أترب من يدري
فما عز سوء الحشر فيبيهم • وما عز جوامع ميمز بوسعه ضر
أذيقت كؤوسا لقيمنا بها عليهم • فأعفوا عن الدنيا على اعتقادي أمني
هنيئا لهم حور الجنة تحت زنغلي • وهم أهل ود الله كانا بحي الزهر
فلا عيش إلا مع أناس قلوبهم • تحن إلى التقوى وترتاح إلى الذكر

رُوِيَ عن بعض العباد رضي الله عنه أنه قال بينما أنا يوما في بعض الطرق أسير وكنت صائما فرأيت نهرا جاريا فأنا أتفكر فيه فإذا أنا بسفرجلة على وجه الماء فأخذتها لأفطر عليها قال فلما أفطرت عليها ندمت وقلت أفطرت على ما لم يتبين لي فلما أصبحت صرت أقصر بما على باب البستان الذي كان يخرج منه النهر فخرج إلي شيخ فقلت إنه خرج من بستانك هذا سفرجلة بالأمس فأخذتها فأكلتها وجدت ندامة على ذلك فعسى أن تجعلني في حل فقال لي الشيخ أنا في هذا البستان أجير وأنا فيه منذ أربعين سنة ما أكلت من ثمره شيئا وليس لي في البستان شيء قلت فلمن هو قال لأخوين في الموضع الفلاني قال فأتيت الموضع فوجدت أحدهما فقصصت عليه القصة فقال لي نصف البستان لي وأنت في حل من نصيبي في تلك السفرجلة فقلت له وأين أجد أخاك قال بموضع كذا فمضيت إليه وقصصت عليه القصة فقال لي والله لا أجعلك في حل إلا بشرط قلت وما هو قال أن أزوجك ابنتي وأعطيك عليها ألف دينار فقال له العابد وكيف أنا لي شغل عن هذا مالي أتيت ما أحل لي إلا سفرجلة فاجعلني في حل فقال له والله لا فعلت ذلك إلا بالشرط المذكور فلما رآه العابد الجد قال أفعل فأعطاه ألف دينار ثم قال له أعطني منها ما شئت مهر ابنتي

فرمى بها كلها فقال إنا التعفف فمن وهبنا ابنته فكأنما الناس على ذلك وقالوا خطب ابنتك أرباب الدولة وكبراء الناس ولم نعطها لهم فكيف أعطيتها الفقير لا مال له فقال لهم يا قوم إنما رغبته في الورع والدين ثم هذا الرجل من خيار عباد الله الصالحين رضي الله عنهم

الباب الثاني عشر

في بيان طريق القوم في الخلاء نور البصر القلب المظلم يبقى في شرك الشك وما ينتزعه خير وقت الشباب كله عمل نهار صوم وليلة سهر ووقت البطال غفلة ونصير لذة عيش النفس من ذاق حلاوة الزهد اشتغل التهجد والسهر إن لم تدرك المتهجد من أول الساقة في أعقاب السحر تنفض من نوم الغفلة فهذا فجر المشيب انفجر وإذا دنت الشمس إذا انقلب عن الباب انقهر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يغرن أحدكم كالغنج الشيوخ إن خافه عمل أو كثرا أجير الشيوخ ثم نعطه أجرا وأجرا لم يعمل وأوحى الله إلى داود عليه السلام يا داود العاقلون يعيشون في كنف الله والذاكرون يعيشون في رحمة الله والعارفون يعيشون في لطف الله والصديقون يعيشون في قرب الله والمحبون يعيشون في بساط أنس الله فيطعمهم ويسقيهم قال أبو بكر الرازي قال ابن عطاء لما أكل آدم من الشجرة طرده كل شيء ونفاه عن نفسه وأبعده عن قربه إلا شجرة العود فإنها آوته وبكى عليه كل شيء إلا الذهب والفضة فأوحى الله إليهما ما لكما لا تبكيا على من طرده محبوبه فقالا إلهنا ما كنا نبكي على من عصى محبوبه فقال وعزتي وجلالي لأعزنكما ولأجعلنكما قيمة كل شيء ولأجعلن أولاد آدم خدما لكما وأوحى الله إلى العود ما لك آويت طريد مولاه فقال رحمة مني على ذلك فقال وعزتي وجلالي لأعذبنك في الدنيا بالنار فلا ينتفع بك إلا بعد إحراقك لأنك آويت من عصى جوار مولاه بعيدا منه والطلاع عليه وأنشدوا

لقد وردنا الشفاء وما وردنا • فهمنا والهوى وما فهمنا